دراما عراقية لم تنقلها الفضائيات!

جنود (مازالوا مجهولين) أنقذوا شركة الجلود من أيدي لصوص نيسان ٢٠٠٣

عامر القيسي
إياد عطية
تصوير - سمير هادي

تقدم الموظف خليل صالح مع بعض زملائه ظهيرة التاسع من نيسان ٢٠٠٣ نحو الباب الرئيس للشركة العامة للصناعات الجلدية وأزاحوا صورة صدام المخلوع وخطوا بدلاً منها عبارة (امانة اللّه ورسوله. عيشة ثلاثة الاف عائلة على هذه الشركة) وواصل مع زملائه ترتيب اوضاع حماية هذه المؤسسة الحكومية من اعمال السلب والنهب، بعد ان سقطت الدولة بكل بناها وأصبح كل شيء مباحاً للصوص والعصابات.

وبعد هدوء العاصفة. كانت شركة الجلود واحدة من المؤسسات القليلة التي لم يصبها الخراب والتخريب ولم تصل اليها يد السراق ونستطيع ان نقول بعبارة ادق ان يد اللصوص قد وصلت اليها ولكنها وقبل أن تتمكن من العبث بالشركة، كانت ثلة من المنتسبين، بالمرصاد لايدي العبث هذه والملاحظة الاكثر اهمية، ان معظم هؤلاء المنتسبين ممن تعرض في الزمن المقبور الى اشكال متنوعة من المضايقات. وبعضهم تعرض أقاربه للاعتقال وغيبتهم زنازين الامن الصدامي منذ سنوات طوال ولم يظهروا الا في قوائم المعدومين لدى لجان السجناء السياسيين وحقوق الإنسان.

من جسر ديالى الى الكرادة

سمع خليل مثل غيره ان كل شيء أصبح معرضاً للسرقة بعد حالة الفراغ الأمني ظل الرجل حائراً فهو من سكنة جسر ديالى والجسر قد تعرض للتدمير جراء قصف قوات التحالف.

كيف يصل اذاً الى مقر الشركة ليحميها ؟

لم يكن أمامه غير إطلاق العنان لساقيه استجابة لنداء غيرته العراقية. وصل الى الزعفرانية متوجهاً الى احد فروع الشركة وهو فرع الدباغة. وهناك وجد شباب هذا الفرع قد سبقوه لاداء الواجب الذي فرضه عليهم ضميرهم. كان هناك أكثر من عشرة منتسبين يقومون بواجب حماية فرع الشركة التي يعملون فيها بصفة عمال!

يواصل خليل وبمساعدة احد الاصدقاء وبسيارته وصلت الى المقر العام للشركة في منطقة الكرادة. كان الوقت يمر ثقيلاً والطريق الى الشركة اصبح طويلاً. بعد ان وصلت كان قد سبقني كل من مدحت شوكت وعبد علي (ابو نجم) ومع غروب الشمس كان عدد الذين وصلوا الى الشركة من المنتسبين ١٢ شخصاً من اماكن مختلفة بضمنهم السيدة أمَة الزهراء (ام علي) ولعدم علم عائلتي باني في هذا المكان، وبسبب ظروف تلك الأيام فقد طلب مني الزملاء الذهاب الى بيتي ليلاً والعودة صباحاً الى الشركة، وقد اتفقنا على ذلك بعد ان شعرت بان الشركة في أمان وفعلاً أوصلني السائق مدحت الى الزعفرانية وقد وجهته ان يذهب الى الحاج ناصر وهو حارس ليلي ويحضره من منطقة بغداد الجديدة وقد تم ذلك فعلاً ويضيف خليل، في ظهيرة هذا اليوم وقفت امام باب الشركة سيارات نقل كبيرة، ونزلت منها مجموعة من اللصوص، تصدينا لهم سبونا وشتمونا وقالوا لنا بالحرف الواحد (مالتكم مالت الخلفكم .. راح نرجعلكم بعدين!) .

حين أتيت صباح اليوم التالي رافقني أخي لتعزيز أفراد حماية الشركة وواصلت هذا المنهج النهار كله في الشركة ومساء أعود لأحافظ على عائلتي.

خياطة وطاهية وشهادة ماجستير

أمَة الزهراء يلقبونها (ام علي) امرأة متشحة بالسواد، كان عملها في الشركة قبل ٩/ ٢٠٠٣/٤ خياطة. في الوقت نفسه الذي كانت تحمل فيه شهادة ماجستير من جامعة عين شمس في القاهرة وحصلت على شهادتها باطروحتها (الجنسية المثلية بين الذكور. مشكلة اجتماعية) منذ عام ١٩٨١ رفضت ام علي الحديث عن أشياء تخصها فقد استغربنا صراحة، ان تكون بهذا المستوى من التحصيل العلمي وعنوانها الوظيفي خياطة وهي الان مديرة انتاج! كانت خائفة لكن المعلومات التي حصلنا عليها تقول، إن العديد من اقربائها قد اعدم بتهم معاداة سلطة البعث وزوجها لا احد يعرف مصيره وشقيقها اعدم ايضاً، برغم تكتمها على هذه المعلومة. وخوفها نابع من احتمال تعرضها للاذى من قبل مجهولين، تقول ام علي: صباح ٢٠٠٣/٤/١٠ اتيت الى الشركة، بعد ان سمعت عن حالات السلب والنهب كانت الساعة السابعة الا ربعاً صباحاً رأيت مدير القسم التجاري الزميل عبد المجيد، طمأنني على وضع الشركة، وكنت اعرف عناوين سكن بعض المنتسبين قرب الشركة، ذهبت اليهم، وقد استجاب اثنان من خمسة منتسبين جاءوا معي الى الشركة. والتحقت بنا الزميلة وئام عبد الرسول، رئيسة قسم الحسابات وكنت مع وئام نقوم بطهو الطعام للموجودين، وقد حصلنا على المواد الغذائية من مخزن التغذية في الشركة.

كانت لي رحلة يومية صباحاً المجيء الى الشركة والقيام بما يحتمه علي الواجب في مساعدة زملائي على إدامة روحية التصدي لأعمال السرقة. في الساعات الأولى لم تكن المعنويات عالية بما يكفي ولكن مع مرور الوقت، ثبت لحماة الشركة ان باستطاعتهم فعل اشياء كثيرة، كنت اقوم بطهو الطعام ثم أعود مساء الى داري لرعاية عائلتي وحين سألناها عن حياتها الشخصية وكانت لدينا معلومات بسيطة عنها، اجابت باعصاب متوترة، بان الكلام لا يفيد والمظلوم سيبقى مظلوماً. لقد تغير الوضع الان وعلى الساسة الجدد ان يفكروا جيداً في منح حقوق الناس الذين تضرروا في زمن الطاغية. لقد قدمت أكثر من طلب الى وزارة حقوق الإنسان وغيرها من المؤسسات ولكن من دون جدوى، لا احد يسمع !!

وزارة الصناعة تجاهلت تكريم الذين حافظوا على ممتلكات الشركة في الأيام العصيبة !

في إثناء حديثنا مع السيدة (أمَة الزهراء) في غرفة العلاقات والإعلام دخل علينا بعض المنتسبين وهم يحدقون في وجوهنا كما لو أنهم يرغبون في اكتشاف شيء غامض او جديد. وكان هؤلاء الناس من الذين ساهموا في حماية الشركة. وكانوا يرغبون في قول ما في صدورهم عن دورهم في صنع هذه الدراما.

عبود يغني !

من قصص عبد علي محمد (ابو نجم) انه حين أحيل الى التقاعد في أواسط التسعينيات كان يأتي الى الشركة يومياً يحوم حولها ويسأل عن أصدقائه يقول (ابو نجم) لقد عشت عمري فيها فانا من مواليد ١٩٣٧، ولي خدمة في هذه الشركة ٥٢ سنة... منذ اليوم الاول لسقوط صدام كنت آتي صباح كل يوم مع صديق لي بسيارته (البرازيلي) لأتأكد من ان الشركة مازالت بعيدة عن ايدي اللصوص. ثم انضممت الى بقية أخواني، بعد ان أرسلت عائلتي الى بعقوبة ، لا أستطع التفرغ لحماية الشركة، ومن حينها بدأت أبيت في الشركة حتى انكشفت الغمة.. من خلال الحوار تبين ان هناك شخصاً يقال إنه مجنون، او مختل عقلياً، بسبب اعتقاله من قبل أجهزة نظام صدام. فقد دخل (عبود) احد المعتقلات عاقلاً وخرج مجنوناً لهذه الشخصية حكاية في حياكة فصول هذا العمل الوطني. كان يأتي الى الشركة ليلاً، ويبدد وحشة الليل عليهم بأغاني المطرب "سعدي الحلي" التي كانوا يطربون لها وفي أحيان يحثونه على مواصلة الغناء، وفي أحيان أخرى يشاركونه الغناء. يقول ابو نجم لقد كانت لوجوده أهمية خاصة من الناحية النفسية، فقد كنا نتحلق حوله، نذكره ببعض الاغاني فيؤديها لنا ونشاركه في بعضها في جو ودي عمق رغبتنا في البقاء داخل الشركة ليلاً ومواصلة حمايتها كان عبد علي محمد في إثناء حديثه معنا يحثنا بطريق خفي، للضغط على (أم علي) للحديث عن دورها في هذا العمل، وعن معاناتها في زمن النظام السابق، وحين كانت ام علي تتردد في الانفتاح بالحوار كان يدمدم مع نفسه "انها خائفة .. مازالت خائفة" !! يضيف عبد علي محمد ان آخرين قد اتوا للشركة من قسم الدباغة في الزعفرانية لتعزيز الحماية واذكر (حمداً ومحمداً) منهم اللذين كانا يبيتان في الشركة معنا، وللحقيقة اقول ان راضي صالح ومدحت شوكت كانا اول من تواجد في الشركة منذ بداية أعمال السلب.

الفانوس يحرس ايضاً

قبل خمسة ايام من سقوط النظام سلمتني الشركة دراجة بخارية (موتور سايكل) لجلب البريد من النادي الثقافي في البلديات الى مقر الشركة. وكان آخر بريد جلبته يوم ٤/٨ وبقيت في الشركة . ويواصل راضي صالح، موظف السيطرة النوعية حديثه معنا: لقد قضيت ٢٦ عاماً في خدمة الشركة. وكان ينبغي لنا ان نحمي مصدر رزقنا لقد حاول بعض العصابات الدخول الى الشركة فتصدينا لها وقالوا لنا لتخويفنا (سنقتلكم جميعاً ولكن انتظرونا حتى نكمل سرقة شركات اخرى!) ولم يكن مثل هذا التهديد ليخيفنا فقد قررنا الدفاع عن الشركة مهما كان الثمن ، وكنا نقوم بخدعة لا اعرف من ابتكرها، وهي ان نشعل فانوساً في مكان واضح للقادم الينا، لكي يعرف ان الشركة ليست من دون حماية، فوجود ضوء الفانوس ليلاً يعني ان احداً ما موجود داخل الشركة. لقد كانت الزميلتان ام علي ووئام تقومان بواجبيهما في اعداد الطعام لنا نهاراً، ويتولى تأمين طعامنا ليلاً (ابو وسام) وهو ليس منتسباً انما هو متقاعد، وكان يقوم بعمله هذا بمساعدة بعض العوائل القريبة ومنها بيت يسمونه (البيت البوشيطي) وهو محاذ للشركة.. ويواصل راضي: في احدى المرات تعرض للشركة بعض اللصوص فقمنا "ببسطهم .. بسطة عراقية محترمة! ابعدتهم نهائياً عن الشركة، ومرة اخرى اتت عصابة اخرى من الجهة الشرقية للشركة، وقد اشتبكنا معهم بالرصاص، ففروا مثل غيرهم. الشيء المؤلم ، يقول "راضي" اني بالرغم من هذا العمل الذي قمت به بقناعة، فلا احد يريد ان يصدق مثلاً ان دراجتي قد سرقت مني برغم وجود محضر شرطة مع شهود. فهل يعقل هذا؟ يتدخل هنا مدحت شوكت، وهو من اوائل الذين ساهموا بفعالية في حماية الشركة، لقد استنجدنا بداية بحسينية "البو شجاع" وقد أبدى الشباب هناك استعداداً عالياً للمساعدة وقالوا لنا: "إذا احتجتم الى أي شيء فنحن حاضرون" ولكن بعد ان وصل عدد اخر من الزملاء لم نعد بحاجة الى غيرنا، وكنا نشعر بالاطمئنان من جيران الشركة الذين لم يبخلوا علينا بشيء بل عرضوا رغبتهم في المشاركة الفعلية بحراسة الشركة، والحمد لله لقد كفينا ووفينا وبجهود جميع من كان حاضراً.

ما قصة الموظف الذي أتى مشياً على الاقدام من جسر ديالى للدفاع عن شركته ؟

واقول لك حقيقة ان أغاني عبود كانت واحدة من الأسباب التي دعتني للمبيت طوال تلك الأيام لقد كان صوتاً شجياً يؤنسنا ليلاً ولا احد يعلم اين يختفي نهاراً!!

البيت البعشيقي

في الفرع المحاذي للشركة يقع "البيت البعشيقي" ولا احد يعرف اصول هذه التسمية سوى ان هذه العائلة من اهالي محافظة نينوى ويجهلون غير ذلك عنهم. ولدهم الصبي مصطفى الذي التقيناه وهو ابن حيدر شاكر رب الاسرة يقول: إن والده حمل رشاشته ليدافع عن الشركة اذا حصل أي شيء وان المدير السابق للشركة وقبل نهاية الحرب كان يبيت عندنا خوفاً من تعرض الشركة للقصف وقد قدمنا لحراس الشركة الاكل والحلويات، لم يكن بالامكان الحصول على معلومات اكثر عن البيت البعشيقي.

ظنون

ظن الجميع ان سيارات الشركة قد سرقت او اختفت الى الابد لكن ظنونهم ذهبت ادراج الرياح، حيث ظهرت السيارات مع سائقيها بعد انحسار موجة السلب والنهب، واصطفت السيارات داخل الشركة لا نقص فيها. ولم يقل احد السائقين إن سيارته قد سرقت منه ولم يكن هناك اسهل من هذا الادعاء في تلك الظروف ولم يكن من الصعوبة تصديق مثل هذه الادعاءات ايضاً، وهذا ما حصل فعلاً في الكثير من مؤسسات الدولة الاخرى.

تكريم شرفي

كل الشخصيات التي التقيناها والتي لم نلتق بها، قامت بدور مهم في الحفاظ على ممتلكات الشركة في تلك الفترة العصيبة، لم يجر تكريمهم، لا من الناحية المادية ولا حتى المعنوية قال لنا احدهم انهم لا يريدون أموالاً ولا امتيازات كل ما يطلبونه هو ان توضع لوحة شرف داخل الشركة تدون فيها أسماؤهم، لان العمل الذي قاموا به هو جزء مهم من تاريخهم وصفحة يفخرون بها امام زملائهم في الشركة وأمام أبنائهم، ليصبحوا قدوة في سلوكهم الحياتي والاجتماعي والمهني. فقد طلبت منهم وزارة الصناعة رفع اسماء بنسبة ١٪ لغرض تكريمهم ثم رفع سقف النسبة الى ٣٠٪ ثم ٣٥٪. لكن عملية التكريم ضاعت بين هذه النسب المئوية كتابنا وكتابكم كما يقال، برغم ان السيد خليل صالح مدير البيئة والسلامة الذي كان على رأس مجموعة الحماية قد رفع اسماء من يستحق التكريم ولكن شيئاً لم يحدث ! ويعتقد هؤلاء ان سبب عدم التكريم يعود الى ان احداً لم يستطع الحفاظ على وزارة الصناعة من اعمال السلب والنهب، فقد ضاعت الوزارة مع ممتلكاتها في تلك الفوضى والعناصر الوحيدة التي تم تكريمها هم سائقو السيارات إذ منح كل واحد منهم مبلغ ٢٥٠ الف دينار، ولا احد يدري سبب هذا التمييز في التكريم فما قيمة سيارة امام قيمة شركة بكاملها؟

من جهتنا نرى ضرورة تشكيل لجنة خاصة مهمتها التأكد من المنتسبين الذين ساهموا بأي دور كان في حماية هذه الشركة وتكريمهم مادياً ومعنوياً.

***خياطة وحاملة شهادة ماجستير تعد الطعام لحراس الشركة**

***عبود يبدد وحشة الليل بأغاني سعدي الحلي**